

## تحديد النسل بالأسباب الوقائية

### في الميزان الاجتماعي

#### للإمام الشهيد البوطي

يعد الباحثون ميلاد هذه الدعوة في العالم إلى أواخر القرن الثامن عشر الميلادي، ويربطها بالقسيس والعالم الاقتصادي البريطاني مالتوس Malthus. كان الشعب البريطاني يتقلب إذ ذاك في سعة من العيش وترف ورخاء عظيمين، وقد لاحظ أن الشعب البريطاني يتكاثر عدده أكثر من المتوقع.

فنشر مقالاً عنوانه (تزايد السكان وتأثيره في تقدم المجتمع في المستقبل)<sup>1</sup> في عام 1798م أوضح فيه أن وسائل الإنتاج وأسباب الرزق في الأرض محدودة، غير أنه لا يوجد حد يقف عنده تزايد السكان وتضخم النسل. فإذا ترك الأمر بدون تنسيق، فإن المفروض أن يأتي يوم تضيق الأرض فيه بسكانها وتقل فيه وسائل العيش عن تلبية حاجاتهم. ثم اقترح العمل على أن يكون نمو عدد السكان متلائماً مع نمو وسائل الإنتاج، وأن لا يزيد الأول على الثاني بحال. واقترح لتنفيذ هذا التنسيق سبيلين اثنين:

أولهما: ألا يتزوج الشباب إلا بعد أن تتقدم بهم السن.

ثانيهما: أن يبذل الأزواج - بعد أن تجمعهم الحياة الزوجية - قصارى جهدهم، وبمختلف الوسائل، في سبيل الإقلال من الإنجاب.

وما كادت أفكار مالتوس هذه تنتشر، حتى ظهر الباحث الفرنسي فرانسيس بلاس Francis Palaces فنادى بدعوته ودعا إلى ضرورة الحد من تزايد السكان. وبعد قليل ظهر في أمريكا الطبيب المشهور تشارلس نوروتون Charles Knorotton فأيد الفكرة ذاتها، موضحاً التدابير الطبية التي اقترحها لتنفيذ الفكرة.

1 كان هذا المقال من أحد العوامل التي دفعت بداروين إلى طرح نظريته في التطور وأصل الأنواع. انظر مقدمة كتابه: أصل الأنواع.

وسرعان ما لقيت هذه الدعوة رواجاً في الأوساط المختلفة واستقبلت، من الغرب المقبل على بحر من التحلل لا شاطئ ولا قرار له، تربة صالحة؛ ووجد الباحثون عن اللذة والهايون من مغارم المسؤولية في الاستجابة لها ما يحقق بغيتهم ويقرب هدفهم.

إن الذي أثبتته الدراسات العلمية الموضوعية ودلت عليه تجارب الزمن ووقائع التاريخ، عكس الذي تصوره أصحاب هذه الدعوة، فلنشرح ذلك بالقدر الذي يتسع له هذا المجال:

1- إن أرباب هذه الدعوة، وفي مقدمتهم مالتوس - أقاموا دعوتهم على خطيئة كبرى في تقدير الأمور، وفي معنى الرزق الذي يحتاج إليه الإنسان. ألا وهي تصورهم أن الحاجات الإنسانية محصورة في الخيرات الثابتة في الأرض والمنافع الطبيعية الكامنة فيها بقطع النظر عن أي تفاعل بينها وبين الإنسان. وهي بدون شك، منافع وخيرات محصورة سرعان ما يربو عليها نمو السكان وتكاثر الأفراد. ولكن الأمر في حقيقته ليس كذلك.

ليست مقومات العيش لبني الإنسان، متمثلة في هذه المدخرات الثابتة من زيت وفحم وحديد وغيرها، وإنما هي كل ما قد يتوالد من تزواج هذه المدخرات مع ما قد يبذله الإنسان من جهد ويحقق من تدبير في سبيل الوصول بهذه المنافع الطبيعية إلى أقصى درجات الاستفادة المتنوعة.

2- إن المتحمسين في الدعوة إلى تحديد النسل، يذهلون عن حقيقة ذات أهمية كبرى في ترسيخ دعائم الحضارة والمدنية في المجتمع. وهي حقيقة صدقتها وقائع التاريخ، ثم هي من الواضح بحيث ما ينبغي أن تخفى على أحد. إن أي أمة، لا يتاح لها أن تصعد في مرعاة الحضارة، إلا بالاعتماد على أولئك العباقرة والمبدعين وأرباب الطاقات الهارقة فيها، وهم يشكلون دائماً نسبة قليلة بالنظر لمجموع الأمة أو عامة الشعب. غير أن هذه الأمة كلما كانت أكثر عدداً، كانت هذه الصفوة فيها أوفر عدداً وأكثر تنوعاً، وكانت فرص الاختصاصات والمهارات العملية أمامها أرحب وأوسع.

إن من البدهة بمكان أن أي أمة قليلة العدد لا يمكن أن تتمتع بتنوع واسع في مواهب أفرادها، ولا يمكن أن تتسع أمام أفرادها ميادين التنافس على المهارات والعلوم المختلفة، وبالتالي لا يمكن اصطفاء

المبرزين في كل من هذه الميادين ملء الثغرات الهامة بهم. إذا إن رأس مال ذلك كله إنما هو الكثرة والفيض السكاني إذ ينساح في الأرض.

وتبدو لك ثمرة هذ الذي نقوله فيما تلاحظه من كثرة أصحاب الاختصاصات العميقة في الأمم الكثيرة العدد، ومن قلة هؤلاء الرجال في الأمم القليلة العدد.

\*\*\*

إن الدعوة إلى تحديد النسل لو فرض أن لها في سائر أطراف العالم مسوغاتها وأسبابها، لن يكون لها في العالم العربي إلا ما يكشف عن أسوأ نتائجهما وأوخم عواقبها. فكيف وقد لفظتها طبيعة العالم بأسره؟!

إن العالم العربي عالم واسع فسيح، تتجاوز مساحته 12,76 مليون كيلومتر مربع، ويزيد عدد سكانه على 150 مليون نسمة. فهو أوسع بلاد العالم التي تسكنها أمة واحدة ذات مقومات واحدة لوحدة الأمة. إذ تقارب مساحته عشر مساحة المعمورة، وهو يزيد كثيراً على ضعف مساحة أوروبا، ويعادل المرة وربع المرة من بلاد الصين، ويزيد على المرة ونصف المرة من مساحة الولايات المتحدة الأمريكية.

وهو يقع في أهم مناطق الأرض، إذ يصل كما تعلم بين قارات ثلاث، ثم إن مفاتيح المحيطات والبحار كلها تقع تحت يده. ثم إن هذه المنطقة الهامة، تتمتع بعد ذلك كله، بذخر متنوع لا ينضب من الثروات الظاهرة والباطنة. تجمعت فيها حيث تتجمع بهذا التكامل، في أي بقعة أخرى من العالم.

فإذا علمت بعد ذلك كله أن الكثافة السكانية في هذه المنطقة لا تزيد عن 8 أو 9 أشخاص في الكيلومتر المربع منه، في حين أن الكثافة السكانية في أوروبا تزيد على 87 في الكيلومتر المربع - أدركت مدى خطورة الجريمة التي تنطوي على الدعوة إلى تحديد النسل في هذه المنطقة.

إن أي تقدم اقتصادي أو عمراني في ربوع الوطن العربي، رهن بزيادة سكانه. وما لم تتحقق هذه الزيادة بنسبة عالية، فإن شيئاً من أحلام المشاريع الاقتصادية الكبرى لن يتحقق فيه، ولن تتوالت العقول المبدعة

لشيء من التسابق والتنافس الشريفين في ميدان البحث العلمي والإنتاج الاقتصادي، ولن تتشابك أيدي التعاون لنصرة الحق ورد الكيد.

إن من المتفق عليه عند علماء الاقتصاد أن عوامل الإنتاج ثلاثة: الأرض والإنسان ورأس المال، وأن الإنسان هو أهم هذه العوامل الثلاثة: إذ هو الذي يبدع في العاملين الآخرين الحركة والاستهداف والتفاعل.<sup>2</sup>

فهما كان الوطن العربي غنياً بالأرض الواسعة ورأس المال العظيم، فإن شيئاً من ذلك لن يتحول إلى تقدم ورخاء إلا بالكثافة البشرية إذ تتحرك فتحيل كلاً منهما إلى طاقة وإبداع.

ولتعلم أن أي تصور لإمكانات الوطن العربي، يعتمد على واقع التجزئة والتمزق اللذين يعاني منهما، جريمة نكراء تستهدف التنكر لتاريخ هذه الأمة والاستخفاف بما تملكه من مقومات الوحدة، وفي مقدمتها الدين الحق الذي يظل أرضها ويجمع شملها.

هذا وأنا لا أتكلم عن العالم العربي إلا بوصفه جزءاً لا يتجزء من العالم الإسلامي؛ فالمشكلة فيه \_ بالنسبة إلى هذا الموضوع \_ واحدة، والحل واحد والمصير واحد.

غير أنني أضطر إلى أن أحدث القراء في هذا الصدد عن العالم العربي بالذات، لأن دعوة هائجة قامت في كثير من جوانبه تدعو إلى اتخاذ التدابير المختلفة للحد من نسله، وتنذر (العالم العربي) بالويل والثبور إن هو استسلم للدفع السكاني المتكاثراً!.. فلا بد في معرض الرد عليهم من الحديث عن العالم العربي الذي هو محل البحث بيننا وبينهم. أما في واقع الأمر نفسه، فإن بلاء العالم العربي جزء لا يتجزء من بلاء العالم الإسلامي، داؤهما ودواؤهما واحد. إذ كان الإسلام هو الإطار الجامع لأشتات مقدسة كبرى فوق هذه الأرض، مهما اختلفت الخصائص الجزئية فيما بيننا.

وحسبك لتدرك أن الحديث عن الدعوة إلى تحديد النسل في عالمنا هذا إجرام سخيف، أن تعلم بأن كتاب الغرب، يفندون فيما بينهم وضمن محيطهم، آراء مالتوس وشيعته، وليحون في الدعوة إلى الاستكثار من النسل ورفع نسبة الكثافة السكانية عندهم، كما قد رأيت لدى مناقشتنا لهذه الدعوة،

2 انظر الاقتصاد السياسي للدكتور علي عبد الواحد وافي من ص 105 إلى 116.

حتى إذا نصبوا منابرهم في اتجاه الشرق الأوسط، ونظروا إلى عالمنا العربي والإسلامي الفسيح، تغيرت آراؤهم فجأة، وانعكس حديثهم عن هذه الدعوة، وأخذوا يحذرون العرب والمسلمين من استفحال النسل، ومما يسمونه بخطر الانفجار السكاني!

وما ينبغي أن يفوت كل داع حريف حر في هذه الأمة، أن الغربيين إنما يثون هذه الدعوة فيما بيننا، حذراً من أن يقود التفوق السكاني في منطقة الشرق الأوسط وسائر العالم الإسلامي، إلى تفوق في استخدام الآلة والعلوم، فيتحرر بذلك من سلطان الغرب، بل يمتلك زمام القيادة في إدارة دولاب اقتصادي وسياسي يقود المنطقة إلى سدة الريادة في العالم.

أجل إن الغربيين يخشون هذا، ويتصورونه ماثلاً أمامهم، وإن كانت أكثرية هذه الأمة ذاتها لا تتمتع من الطموح والآمال بما يضعها أمام هذا التطور وإمكان حصوله.

تقول مجلة (تايم) الأمريكية في عددها الصادر في 11 يناير 1961: (إن هذيان أمريكا وكل ما تبذل من النصائح والمواعظ عن مشكلة السكان، إنما هو نتيجة إلى حد كبير لشعورها بتلك النتائج والمؤثرات السياسية المتوقعة على أساس تغير الأحوال في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، وخاصة على أساس زيادة السكان في هذه المناطق، بحيث يصبحون أغلبية في العالم).

ويوضح آرثر كورماك مقاصد الأوروبيين في إلحاحهم على المسلمين بضرورة تحديد النسل، فيقول بكل صراحة: (إن أهل الشرق سوف لا يلبثون إلا قليلاً حتى يطلعوا على حقيقة هذا الدجل، ثم لا يغتفرونه لأهل الغرب، لأنه استعمار من نوع جديد يهدف إلى دفع الأمم غير المتقدمة، ولاسيما الأمم السوداء، إلى مزيد من الذل والخسف حتى تتمكن الأمم البيضاء من الاحتفاظ بسيادتها)<sup>3</sup>

إن أرض مصر تعد في مقدمة الأجزاء الزراعية من الوطن العربي، ولكنها الآن لم تبق زراعية محضة كما كانت، بل أصبحت مصر اليوم تعتمد على الصناعة. لا سيما بعد أن علم أهلها أن أرض مصر كما هي غنية في ظاهرها بأسباب الزرع والستنبات، غنية في باطنها بأسباب الصناعة وموادها، من بتروك وفحم وحديد وغير ذلك.

3 استعراض علمي لحركة تحديد النسل: 174

ولقد رأينا اليوم الذي تصدر فيه مصر من منتوجاتها الصناعية أكثر مما كانت تصدره من منتوجاتها الزراعية. على أنها لا تزال في طور الابتداء والتأسيس. فإذا كانت مصر—وهي من أولى البقاع الزراعية في العامل العربي— هذا شأنها، فما بالك ببقية البلاد العربية كالسودان والشمال الإفريقي والجزيرة العربية وأطرافها، وكلها مناطق مليئة بذخر الثروات الصناعية المختلفة<sup>4</sup>!

لقد اعتمدت أوروبا، في نهضتها الصناعية، على أقل من هذا الذخر بكثير، بل اعتمدت في كثير من الأحيان على استيراد هذه المواد الأولية، كما صنعت سويسرا، وكان معتمداها الأول في ذلك ثروة السكان والأيدي العاملة، والخبرة التي لا تأتي إلا ثمرة الاختصاص والاصطفاء كما أوضحنا.

أليس عجيباً أن تركل الأمة العربية—مع ذلك كله— هذه النعمة، فتستجيب لدعوة الماكين من أعدائها، وتقلص النسل، وتلجأ إلى الانطواء، وتترك زخر الثروة الصناعية التي تغلي بها أرضها كأنها المرجل، لتسيل نعمة إلى أرض غيرها؟

هذا كله، وإن طائفة اليهود في فلسطين، يزدادون كثافة إلى كثافة، ويستقبلون هجرة بعد هجرة، لا يشكون ضائقة، ولا يسترخون لنعيم. لأن ضخامة الأمل يدفعهم إلى الاقتحام ويتغلب على كل حلم بدائي رخيص.<sup>5</sup>

4 الإسلام قوة الغد العالمية ص 182 فم بعد.

5 يقول السطحيون في مقابل كلامنا هذا: إن متوسط النمو السكاني في الدول النامية 3% ومتوسط ذلك في دول أوروبا الغربية وأمريكا 1,5% تقريباً. وبالمقابل فإن التنمية الاقتصادية في الدول النامية بطيئة، على حين أنها في الدول الأوربية والولايات المتحدة سريعة وقوية. وهذا يكفي دليلاً على مدى خطورة الانفجار السكاني في الدول النامية.

أقول: ويغيب هن بال هؤلاء الباحثين أن الكثافة السكانية في المنطقة العربية لا تزيد على 8 أو 9 أشخاص في الكيلومتر المربع. فيما تزيد في أوروبا على 87 في الكيلومتر المربع منه، والأرض عندنا زخر بفيض الكنوز والخبرات المختلفة، وهي عندهم خواء إذا ما قستها بالمنطقة العربية.

فإذا وضعت نسبة الكثافة السكانية في الحسبان، انتهت إلى نتيجة حساسية تجزم لك بأن متوسط النمو السكاني في أوروبا يزيد عنه في الدول النامية عامة والبلاد العربية خاصة بأكثر من أربعة أضعاف.

غير أن من الطبيعي أن يفضلون أن يرقدوا على كنوزهم المخبوءة، ويركنوا إلى الدعوة والخمول، لا بد أن يتبرموا حتى بظلالهم التابعة لهم، وأن ينشد كل منهم المنزل الذي لا يطوف به فيه إلى أمانيه وأحلامه.

## المصدر:

كتاب تحديد النسل للإمام الشهيد البوطي /بتصرف/

